**جمهورية العراق / بغداد / الجامعة المستنصريَّة / كليَّة الآداب**

**قسم اللغة العربيِّة / الأدب الأندلسي / أُستاذ المادة أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**المرحلة الثَّالثة/ مسائي/.....1436ـ1437هـ /2015ــ 2016م**

**الأدب في عصر الإمارة / القسم الأوَّل**

**يحيى الغزال، أبو زكريا يحيى بن الحَكَم البكري**

**( 156 ـ 250هـ / 773 ـ 864م )**

كان أبو زكريا يحيى بن الحكم البكري ـ نسبةً إلى بكر اِبن وائل ـ الجيَّانيّ من أعلام عصر الحَكَم ، وهو شخصية فذّة جمعت بين الأدب والحكمة والسياسة ، ولٌقِّب بالغزال ؛ لجماله ، ووسامته ، وظرافتهِ ، وأناقته ، وقد وصفه المؤرخون بحدة الخاطر ، وبديهة الرأي ، وحُسن الجواب ، والنّجدة و الإقدام ، والحنكة السياسية ، والثقافة المتنوعة ، ومعرفته لعلم النجوم ، وكان نهّازاً للفرص للحصول على المال ، مقبلاً على اللهو ، والمجون في مقتبل حياته ، ثم تابَ ن وتنسك حين تقدّمت به السِّن ، فزهِد في الحياة عملاً وقولاً، وكان لبقاً ذكياً ، خفيف الظل ، عاش نيفاً وتسعين عاماً تثقّف ثقافة علمية عالية ، ودرس فنون الأدب ، وحفظ كثيراً من نصوصها ، غير أن الشّعر غلب عليه ، وبه عُرفَ ، وفُتنَ به فقد نظم الشعر حدثاً ، وبلغ ذروة عنفوانه وشهرته في عهد الحكم ، وكان شعره يميلُ إلى الدعابة ، والتهكم اللاذع ، ولكن تطبعه في الوقت نفسه نزعة فلسفية حرّة ؛ ذلك لأن الغزال لم يكن شاعراً حسب ، بل كان على قول ابن حيّان " حكيم الأندلس " وشاعرها وعرّافها ، وكان متضلعاً في علوم عصره يأخذ بقسطٍ من الفلسفة والفلك والتنجيم ، وكان حرّ التفكير .

وللغزال من المواهب الخَلقية والخُلقية ، ما جعله يُختار لبعض الاعمال الكبيرة في إمارة قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط ، فقد ولَّاه قبض الأعشار " وهو نوع من الضرائب " ، وأُسندَ إليه بعد ذلك مهام جليلة ، كان أخطرها إيفاده في سفارة إلى إمبراطور بيزنطة المسمّى " توفلس " الذي كان قد أرسل سفارةً إلى الأمير الأُموي ، يعرض فيها صداقته ، ويطلب منه مودته ، ويُبدي رغبته في عقد معاهدة بين القسطنطنية ، وقرطبة ، وقد قام بسفارة قرطبة لدى البيزنطيين خير قيام ، ، وصحبه في تلك المهمة السياسية أندلسي عالم يُسمى " يحيى بن حبيب "، ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كلَّ شيء في تلك السفارة التي خلفت شعراً من خير ما جادت به قريحته الشعرية ، فقد هاج البحر ، والغزال ، وصاحبه يركبان السفينة في اتجاه القسطنطنية ، وأحدق بهما الخطر ، فاشتدت العاصفة ، وعلا الموج ، ومن شعره في وصف للأمواج المتعالية التي صارت كالجبال ، إذ قال :

قالَ لي يحيى وصِرْنَا بَينَ مَـوجٍ كالجِبــــالِ

وتَـــولَّتْنَــا ريــــــــاحٌ مِن دَبورٍ وشِـــــــمَالِ

شَقَّتِ القلعَتَيــنِ وانْبَتَـ ـتْ عُرى تِلْكَ الجِبــالِ

وتَمَطَّــى مَـلَكُ المَـو تِ إلينا عن خَيـَــــــالِ

فَرَأَينا الموتَ رَأَيَ العَـ ـيَنِ حَالاً بـَـــــعْدَ حَالِ

ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة " ثيودورا " البيزنطية ، فقد كان يوماً يجلس مع الإمبراطور ، فدخلت عليه زوجته ، وعليها زينتها ، وهي تبدو كالشمس بهاءً ، فجعل الغزال يتأملها ، ولا يميل طرفةً عنها ، وجعل الملك يحدثه ، وهو لا يلتفت إلى ما يقول ، بل ظلّ منصرفاً بكل كيانه إلى الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائِق ، فأجاب الغزال قائلاً للترجمان : " عرِّفه أنّي قد بهرني من حُسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه ؛ فإني لم أرَ قط مثلها ، وأخذ في وصفها والتّعجب من جمالها ، فلما ذكر التّرجمان ذلك تزايدت حظوته عنده ن وسُرّت الملكة بقوله ، وقد أمرت له بهدية فامتنع عن قبولها ، وحين سُئل عن سبب الرّفض أجاب : إنّ صلتها لجزيلة ، وإنّ الأخذ منها لتشريف ، ... ولكن كفاني من الصّلة نظري إليها ، وإقبالها عليّ ... فقالت لترجمناها : متى أحبّ أن يأتيني زائراً فلا يُحجب ، وهكذا كسب الغزال مودة

الملكة ، كما اكتسب إعجاب المَلِك ، وظلَّ على صلة حسنة بها طيلة مُقامه بالقسطنطنية ، وقد خلقت تلك الصِّلة بين الغزال والإمبراطورة " ثيودورا " بعض الشِّعر الغزلي الممزوج بالدُّعابة .

وسألت الإمبراطورة الغزال مرة عن سِنِّه ، وكان قد أصبح في حدود الخمسين ، فأجاب مُداعباً : عشرون !!! فقالت للترجمان : كيف له هذا الشّيب ، وهو ابن عشرين ؟ فقال الغزال للترجمان : ألم ترَ قط مهراً يولد أشهب ؟ فلما نقلت إجابته إلى الإمبراطورة أُعجبت بردِّه ، وفي هذا يقول الغزال :

كُلِفتَ يا قلبـــي هــوًى متعبــاً غالبتَ منه الضّيغمَ الأغلبـــا

إنِّـــي تعلقـــتُ مجوســـــــيّةً تأبى لشمسِ الحُسن أن تَغْرُبَا

أقصى بلادُ اللهِ لـي حيث لا يَلْقَــى إليـها ذاهبٌ مَذْهَـــــباً

يا "تودُ" يا رُودَ الشّبابِ الَّتـي تُطْلِع ُ من أزْرَارِها الكوكبــا

يا بأبي الشّخصِ الَّذي لا أرى أحلــى علــى قلبـي ولا أعذبـا

إن قلتُ يوماً إنّ عينـي رأتْ مُشْبــــهَهُ لــم أَعــدُ أن أكْذِبــا

ثم عاد الغزال من رحلته ، ورأى زرياباً يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة والأندلس جميعاً ، فهجاه ، ووصل ذلك إلى مسامع الأمير ، و كان كما هو معروف يُؤثر زرياباً ، ويخصّه بالعطف ، فقرَّر نفي الغزال ، وقد شفع له بعض أهل الخير ، فعفا عنه الأمير ، غير أن الغزال ضاق بالحياة في الأندلس بعد هذا ، ورحل إلى المشّرق ، وهناك التقى بتلاميذ أبي نواس ، وكان ذلك بعد موت الشاعر المشّرقي بقليل ، فراع الغزال ما رأى من تهوين تلاميذ أبي نواس من شأن شعراء الأندلس ، فتركهم حتى أخذوا في الحديث عن أبي نواس ، ثم قال لهم : منْ يحفظ منكم قوله :

ولما رأيتُ الشَّربَ أكدت سماؤهم تأبطت زِقِّي واحتسبتُ عنائي

وذكر لهم أبيات تلك المقطوعة الخمريّة الرائعة ، فأُعجبوا بالشعر كثيراً ، وذهبوا في مدحه كل مذهب ، معتقدين أنه أوهمهم شعر أبي نواس ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا عليكم فإنّه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي مطلعها :

تداركتُ في شُرب النبيذِ خطائي وفارقتُ فيه شيمي وحيائي

وهي القصيدة التي منها الأبيات التي حسبوها لأبي نواس ، فلما أتمها خجلوا ، وافترقوا عنه .

وقد أوردنا هذه النوادر جميعاً ؛ لنبرز ملامح شخصية الغزال ، وقد تكون بعض هذه النّوادر من نسج خيال القصَّاصين ، ولكنَّها مع ذلك تدلُّ على ما عُرفَ به الشّاعر من صفات ، و ما اشتهرت به شخصيته من معالم ، وهكذا نفهم أنَّ الرَّجل كان ذكياً لبقاً خفيف الظل ، على كثير من السُّخرية التي تصل أحياناً إلى عدم المبالاة .

وبقي الغزال في المشرق مُدَّة ، ثم حنَّ إلى الأندلس فعاد إلى وطنه ، وقد أقلع عن الشّراب ومال إلى الزُّهد وقول الشِّعر فيه .

وظلّ هكذا حتى مات سنة 255 هـ ، تقريباً في عهد الأمير محمّد بعد أن عُمِّرَ ، وقارب على المئة .

ويمكن تقسيم حياة الغزال الشِّعرية إلى ثلاث مراحل :

ـ الأولى : مرحلة الشّباب والنّزق ، وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات الخمر ، والغزل ، والمجون ، والفكاهة .

ـ والمرحلة الثّانية : مرحلة الكِبر ، والتّعقل ، وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات النّقد الاجتماعي ، والأخلاق ، الذي يُنبئ عن عمق وعي ، وقوة إدراك لعيوب النّاس ، ونقائص الحياة ، مما وصل بالشاعر إلى التّشبع بروح السّخرية ، وقوة الإحساس بالمرارة ، بل إلى التّشاؤم الذي حال كثيراً بين عيني الرّجل ، وما في أيدي النّاس والحياة من خير .

ولعلّ مما يُمثل هذه المرحلة من حياة الغزال الشّعريّة قوله في علاقات النّاس القائمة ـ في نظر الشاعرـ على الخَتَل والعداوة ، وانتهاز الفرص ، ونيل القوي من الضّعيف :

لا ومنْ أعملَ المطايا إليه كلُّ منْ تُرتجى إليه نصيبا

ما أرى ها هنا من النّاس إلَّا ثعلباً يطلبُ الدَّجاجَ وذيبـا

أو شبيهاً بالقطِّ ألقى بعينيـــــــــــــــــــهِ إلى فأرةٍ يريـدُ الوثُوبـا

وهذه النقدات الاجتماعيّة والأخلاقيّة تُعدُّ من التجديد الموضوعي الذي طرق به الغزال موضوعات جديدة ، لم يتجه إليها الشُّعراء قبله إلا على سبيل اللمحات العابرة .

ـ أما المرحلة الثَّالثة : فهي مرحلة الضَّعف والزُّهد ، وفي هذه المرحلة تغلب على شعره موضوعات الشّكوى من تقدُّم العُمُر ، والحديث عن البِلى الذي أخذ يَدبُّ في كلِّ شيء منه حتى الاسم ، ثم ذكر الزُّهد في الدّنيا ، ومتاعها الفاني ، والموت والقبر ، والنِّهاية المحتومة ، ومن شعر هذه المرحلة قوله :

ألستَ ترى أنَّ الزَّمانَ طوانـي وبــدَّلَ خَلْقِــي كُلَّـهُ وبَرَانـــــــــــي

تحيّفني عضواً فعضوا فلم يدعْ سوى اسمي صَحيحاً وحدَهُ ولِسانِي

ولو كانت الأسماءُ يَدْخُلُها البِلى لقد بلى اسمي لامتدادِ زَمانــِــــــي

ومـاليَ لا أبْلَـى لتسعين حِجةً وسبعٍ أَتَتْ من بعدها سَنتـــــــــــانِ

ولعلّ من أهم الخصائص الفنية لهذا الشاعر الأندلسي التي تميزه من غيره ممن ساروا في هذا الاتجاه من مشارقة ، وأندلسيين ، مايأتـــــــــــــــــــــــي :

ـ الإتجاه إلى القصِّ " القصص " والحوار .

ـ الميل إلى التّحليل والتّعليل .

ـ التّشبع بروح السُّخرية والنّقد .

ـ إيراد الفكرة المبتكرة والصورة الجديدة من حين إلى حين .

ـ اتّضاح النّظرة الحكيمة واللمحة الفلسفيّة، مما لا يُعرف كثيراً في شعر الأندلسيين.

ـ ومما وصل إلينا من شعره يدلُّ على أَنَّه كان من ألمع شعراء حقبة صراع الإمارة ، بل من أكابر شعراء الأندلس في كل العصور ؛ وذلك لأصالته الشَّعريِّة ، وخصائصه الفنية ، وسَبْقِهِ إلى موضوعات النّقد الاجتماعي والأخلاقي ، وتصوير شعره لعصره ، وحياته إلى حدٍّ كبيرٍ. " الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ، د . أحمد هيكل : ص 164 ـ 166 ، والأدب العربي في الأندلس : د . عليّ محمّد سلامة : ص 252 ـ 258 "